بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وآيةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الميتةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا منْهَا حَبًّا فَمِنهُ يَأكلون وَجَعَلنا فيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأعْنَاب وَفجَّرْنَا فِيهَا منَ العُيون ليأكلوا مِن ثَمَره وَمَاعَمِلَتهُ أيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشكرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[يس : الآيات ٣٣ ـ ٣٥]

فى حديثنا الماضى تكلمنا عن العلم والتزام المسلم المؤمن بطلبه ، لأن الإسلام دين عقل وفكر وعلم ، وهذه المرة نتحدث عن العمل بصفته العماد الأساسى لرخاء أمة الإسلام وتقدمها وقوتها ، والركن الأساسى لتكوين شخصية الإنسان .

وقد كنا نستمع إلى آيات الذكر الحكيم عندما قرأ القارىء قول الحق سبحانه فى سورة الأحزاب :

﴿ إنا عَرضنا الأمَانة على السَّمَوَاتِ والأرضِ والجِبالِ فأبين أن

o p e r a n d l . c o m

يحـــملنَها وأشـــفقن مِنها وحَملـــها الإنســـانُ إنهُ كانَ ظلوماً جهُولاً ﴾ [٣٣/ ٧٢] ، وسأل سائل ماهى الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبـال فأبينها وأشفقن من حملهـا ؟ وقال قـائل هى العبادات ! قلنـا : ولكن السمـوات والأرض والجبال تسبح لله ، وهـذه عبادتها ، فكيف يشفقن منهـا ؟ وقيلت آراء أخـرى ، وانفـض السـامـر وعــدت إلى بيتى وصليت العصر ، ثم تنـاولت المصَحف أقـرأ فيـه فقرات الآيـات التى جعلتهـا فى رأس هـذا الحديث ووجـدت نفسى تقـول لنفسى : إن الله يتحـدث فى آيـات سـورة يس تلك عن عُمران الأرض بالعملَ ، فقد خلق الله الأرض ساكنة ، ثم أنزل عليها المطر وجاء الإنسان فزرع الحب ، ليأكل من ثمره ، لأن الله يتحدث هنا عن جلائل صنعه التى يجريها على أيدى الناس بدليـل قوله تعالى : **﴿ وفَجَّرنا فيها من العُيونِ ليأكلوا من ثمَرِه وما عَملته أيديهمْ أفلاَ يشْكرونَ ﴾** .

فإن الله سبحانه يفجـر العيون وينزل الماء ، ولكننا نحن الـذين نزرع لنأكل مما عملتـه أيدينـا ، لأن العمل هو واجبنـا وعمران الأرض هـو أمانتنـا ، ونحن الذين قبلناها ، والله سبحانه قد خلقنا لنعبده ، والعمل فى عمران الأرض عبادة والذين يعملـون أسعد وأقوى من الـذين لا يعملون ، والعمل عسير وصعب ، ولكننا قبلنا أمانتـه دون أن نفكر فى مصاعبه وعلينا الآن أن نعمل لأننـا التزمنا به لعمران الأرض .

وما قيمـة الحياة أو معنـاها بدون عمل وكسـب ؟ وكيف يصل الإنسان إلى شىء إذا هو لم ينهض ويسع فى رزقه ورزق عياله ؟ إن العبادات واجبة وهذا حق ولكن الله حـدد هذه العبـادات وجعلها هينـة لا تستغرق من وقت الإنســان إلا شيئاً قليـلاً ، فما عساه يفعل بالبقيـة ؟ هذا بين يدى كتـاب رسالة التـوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، وهو أبـو سعيد بن أبى الخير الميهنى وهو واحد من كبار صوفية إيران فى العصر السامانى فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى

وكـان يرى نفسـه ولياً صـاحب كرامـات ، لانه فيما يـزعم وهب نفسه للعبـادة والـوعظ والتف حـولـه دراويش كسـالى لا عمل لهم إلا الطعـام والنـوم وأداء العبادات وشيء من الذكر والاستماع إلى الشيخ أبى سعيد والسير فى موكبه ، وفى أخبار هـذه الجماعة من المتعطلين الـذين لا يقومون بأى عمـل نافع لأنفسهم أو للناس حتى العبـادات يقومـون بها لإرضاء الشيخ أبى سعيـد ، فى هذا مـا يدل بالبرهـان العملى على أن نفس الإنسان لا تصلح إلا بالعمل ، فهو الـذى يشحذ الهمم ويجلو الذهن ويقوى الإحساس بـالفضائل ويعلم المهارات ، وإليك هذه الحكاية التى اخترتها من حكايات ذلك الشيخ العاطل وجماعته من المتبطلين :

« روى أنـه جـاء وقت فى ميهنـة (القـرية التى كـان هـذا الشيخ وأتبـاعـه يعيشون فيها قرب نيسابور) لم يتناول فيه الصوفية لحماً لعدة أيام ، ولم يكن حسن (خادم الشيـخ) يستطيع إحضاره ، لأن جميع القصـابين كانـوا يطالبونـه بأثمان لحومهم ، وفى ذات يوم نهض الشيخ وسار الجميع فى رفقته حتى خرج من البوابة المؤدية إلى طريق مرو ، وأصبح على هضبة بصحـراء مرو ، وعندما كانت تعترى الشيخ حـال من القبض (أى من الضيق) كـان يـذهب إلى ذلك المكـان ، ولما اعتلى الهضبة وقف وتريث برهة وظهر غزال فى الصحراء ، ثم تحكى القصة كيف تقـدم هذا الغـزال من الشيخ أبى سعيـد ، وجعل يتمرغ فى الأرض كأنـه يرجـو الشيخ أن يأمر بذبحه ليأكل الدراويش ، وفعل الشيخ . وتختم الحكاية بعبارة ، وتمتع الـدراويش بلحم ذلك الغزال ، وهـذه من أبسط حكايـات هذه الجماعـة المتعطلة التى زعمت أنها تعيش للعبادة فأصبحت جماعـة من المتسولين يفرضون أنفسهم على النـاس ، ويطالب لهم شيخهم « بـاللحم والفطير وعليه التفكـر » لكى يظلوا حوله يسبحون بحمده ، وهو يتهادى وسطهم كأنه ملك زاعماً أن له عند الله كرامة ، وأن الله يكشف له الغيب ويـرسل إليه وإلى أتباعه المال والثياب

وأطايب الحياة ، وهم يسيرون وراء شيخهم كسالى متبلدين ولا خير فيهم لأحد .

وكما أن الإسلام دين العلم ، فهو كذلك دين العمل ، لأن العمل الذى يتحصل للإنسان عن طريق الدراسة والبحث والتجريب ، يفتح لصاحب العلم طريق العمل النافع ، والعمل كسب وكرامة وعزة ، وقد كانت أوروبا فى مثل حالنا من قلة الموارد والحاجة حتى قامت النهضة الأوربية وتحرك نفر من الناس إلى التفكير والبحث والتجريب ، وتحركت همم ناس أمثال ميكيلانجلو إلى العمل بأيديهم وفتحوا للناس آفاقاً واسعة للعمل ، واجتهد رجال مثل لوفن هوك الهولندى فصنعوا العدسات ، ونحن كنا نعرف العدسات ونظرياتها واشتغل بأمرها الحسن بن الهيثم ، وألف فيها وفى البصريات كتباً ، وهو من أعاظم أهل العلوم فى التاريخ ، ولكن الحسن بن الهيثم كتب ورسم واجتهد فصنع عدسات ولكنه لم يصنع كما صنع ذلك الهولندى لوفن هوك أى أنه لم يحول العلم إلى عمل ، ومن هولندا انتقلت العدسات إلى إيطاليا ، واشتغل بأمرها ميكلانجلو وجاليلو وصنع جاليليو منظاره البعيد ونظر إلى الشمس والكواكب وجاء بعده كوبرنيق فصنع منظاراً ضخماً وتأمل الكواكب ، وجعل ينظر به فى السماء فتكشفت له الحقيقة الكبرى التى بدأت فى تاريخ الفلك والعلم كله عصراً جديداً : رأى أن مركز هذا الكون هو الشمس لا الأرض ، وأخذ هذا الكلام جاليليو وطار به وجعل يذيعه فى الناس وأمسكت به الكنيسة وحاكمته وأرغمته على أن يكذب نفسه ويرجع عن كل ما قال ، وفعل ذلك علناً أمام الناس حتى لا يحرقوه ، ولكن أبواب العلم كانت قد تفتحت ولا سبيل إلى إغلاقها ، ومع العلم سار العمل واكتشفت أوروبا قيمة العمل القائم على العلم وقامت المعاهد والمدارس والمصانع فى كل مكان ، وسار أهل العلم فى الطليعة ووصلوا فى النهاية إلى ما نراهم عليه اليوم ، وكل الفرق بيننا وبينهم فرق علم

وعمل ، إنهم يؤمنون بالعلم إيماناً تاماً ، وإيماننا به قليل ، إنهم يؤمنون بالعمل الجيد المتقن ، ونحن لم نصل بعد إلى هذا الإيمان ، والعلم والعمل وصلا بهم إلى القوة والصدارة والامتياز والحياة الأحسن ، ونحن نسير وراءهم ولا نسبة بين مانحن فيه وما هم فيه ، مع أن الإسلام يؤكد لنا أن العمل هو أساس الحياة الطيبة ، واقرأ قول الله سبحانه فى سورة النحل : **﴿ مَنْ عملَ صَالحاً مِن ذَكَر أو أنثَى وهو مُؤمنٌ فلنُحْيِينَّه حياةً طيبةً ولنجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهم بأحْسَن ما كَانوا يعملونَ ﴾** [النحل ١٦/ ٩٧] .

فهنا يفصل الله أمر العمل الصالح بأجلى بيان ، فهو عمل كسب المعاش بدليل قوله تعالى هنا **﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾** وهذا طبعاً من كسب عمل اليد فى الدنيا وهو غير عمل العبادة ، بدليل قوله تعالى **﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾** فهذا جزاء أعمال التعبد ، وقد سبق أن ذكرت لك أن الله خفف عبادات الإسلام حتى أصبح الواحد منا يقوم بكل عباداته بفرائضها ونوافلها فلا ينفق فى ذاك إلا أيسر الوقت ، ويتسع أمامه المجال بعد ذلك ليقوم بأعمال معاشه ويكسب رزقه على قدر ما يعمل فنحيا حياة طيبة رخية سعيدة ، ثم إن فى القرآن من مفاتيح العلوم والأعمال ما يتعذر حصره إذا نحن قرأنا القرآن فعلاً قراءة تمعن وتفكير وتدبر ، وخذ مثالا لذلك قول الحق فى سورة الحجر :

﴿ ولَو فتَحنا عليهم باباً من السماءِ فظلُّوا فيهِ يعرُجُون . لقالُوا إنما سكِّرتْ أبصارُنا بَل نحن قومٌ مسحورُونَ . ولقد جعلنا فى السماءِ بُروجاً وَزَيَناها للناظِرينَ . وحفِظْناها من كلِ شيطانٍ رجيمٍ ﴾ .

[الحجر ١٥/ ١٤ـ ١٧] .

ثم سألنا أنفسنا : لماذا يقول الله هنا يعرجون بدلا من يدخلون ؟ فإذا مضينا

نستقصى حقيقة ذلك نلاحظ أن القرآن يستعمل لفظ « عرج بعرج » وما يتصرف منه فى معظم مناسبات الصعود إلى السماء فنقرأ فى سورة المعارج : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ .

[٧٠/ ١ ـ ٤]

فالله سبحانه يصف نفسه هنا بأنه ذو المعارج . جمع معراج والملائكة تعرج إليه سبحانه . ويقول فى سورة سبأ : [٣٤/ ٢]

﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور** ﴾ [٣٤/ ٢] .

ويقول فى سورة الحديد :

﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ [٥٧/ ٤] .

فإذا رجعنا إلى القواميس نجد أن لسان العرب مثلا يقول فى مادة « عرج » : وعرج فى الدرجة والسلم يعرج عروجاً أى ارتقى ، وعرج فى الشىء وعليه يعرج ويعرج عروجاً أيضاً . . وفى التنزيل : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ أى تصعد ، عرج يعرج عروجاً وفيه : من الله ذى المعارض ، المصاعد والدرج ، قال قتادة : ذى المعارج ذى الفواضل والنعم . وقيل : معارج الملائكة مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها ، وقال الفراء : ذى المعارج من تحت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك . . والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى فيه الملائكة ، والمعراج شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . يقال : ليس شىء أحسن منه إذا رآه الروح لم يتمالك أن يخرج . . إلى آخره ، وهذا كله كلام طيب ، ولكنه لا يجيب عن سؤالنا : لماذا

يقال فى الصعـود إلى السماء إنه عروج ؟ ثم إن العـروج ليس مقصوراً على الأرواح والملائكة ، فـرسول الله ﷺ عرج بـه إلى السماء ، وصعوده إلى السماء هـو المعراج المعروف .

فإذا نحن فكـرنا فى الأمـر على ضوء مـا وصل إليـه أهل العلم فى زماننـا فى صعـودهم إلى السماء ، وجـدنا أنهم يعـرجـون عنـدما يصعـدون ، فإن المركبـة الفضـائية إذا انطلقت فى خط مستقيـم لم تلبث أن تنعرج وتـدور فى اتجاه دوران الأرض حـول نفسهـا موسعـة خط دورانها شيئـاً فشيئـاً حتى تخرج من الغـلاف الهوائى ، ثم تمضى فى الفضاء فى طريقها إلى غايتها فى خط منعرج أيضاً ، والمراد منحنى ، وعندما وصلـوا إلى القمر دارت المركبة حوله فى اتجاه دورانـه حول نفسه حتى إذا صـارت على الارتفـاع المحسوب عن سطحـه هبط المحلقـون إلى سطح القمر هبوطاً منعرجاً كما تفعل الطائرة فى هبوطها على مدارج المطارات وصعودها منها ، واستمـرت المركبة تدور حـول القمر فى انتظـارهم لتعود بهم إلى الأرض ، لأن الخط المستقيم لا وجود له فى الكون على المدى الطويل ، وهـذه نظرية قررها أينشتـاين من أوائل هـذا القـرن ، وإذن فكل شىء ينطلق من الأرض إلى السماء لابد أن يسير فى خط منحـن حتى ينسجم مع حركـة الكون ونظامـه ، ولهذا فإن الملائكـة تعرج إلى السماء ، وكـذلك الأرواح ، والحق سبحـانه ذو المعـارج وهى الطرق منا إليه .

وهذا تفسير أرجو أن يكون مقبولاً ، وهو مأخوذ من عمل الآخرين ، وكان ينبغى علينا نحن ـ أهل القرآن والقبلـة ـ أن نكون نحن مكتشفيه ، ولكن هذا لم يحدث ، لأننا لم نعمل مع أن ديننا دين عمل ، والقرآن لا يزال يحث على العمل ورسول الله ﷺ لم يكن يضيع لحظة من وقته دون عمل ، كان يتعبد ويصلى ويقرأ القرآن ويسبح ربه على نحـو لم يصل إليه متعبد بعده ، وكـان يجد بعد ذلك من الوقت ما مكن له من القيام بأداء رسالته كـاملة ، فأنشأ أمة المدينة بالجهد البالغ

والعمل المتصل مع التفكير الدائم ورسم الخطط المحكمة مع الهدوء التام وكمال الخلق وسعة الصدر والصبر على الناس ومتاعب العمل الدقيق المحكم .

وهذه كلها سنن كان علينا اتباعها والسير على منولها إذا أردنا حقاً أن نصل بأمتنا إلى حيث كان ينبغى أن يصل بها الإسلام العظيم ، وهكذا فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، فوصلوا بالأمة إلى حيث نعرف .

ونحن عندما نقول إننا نعجب بأبى بكر أو عمر أو على رضوان الله عليهم ، فنحن فى الحقيقة نعجب بالجوانب التى أخذوها عن الرسول ، وساروا عليها ، وأبو بكر فى خطبته المشهورة التى بين فيها منهجه للأمة على مذهب الشورى قال : أما بعد فإنى وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسن النبى ﷺ وعلمنا فعملنا . إنما أنا متبع ولست بمبتدع . وهو هنا يقول إنه متبع للقرآن وما سن النبى ، ومع ذلك فإن اتباعه كان ابتكاراً كله ، أقصد أنه كان ابتكاراً فى حدود القرآن وما سن الرسول ، لأن السنة ليست قيوداً ، وإنما هى طريق رسول الله ، أو طريقته فى مواجهة المشاكل على هدى ما جاء فى القرآن الكريم ، وكانت المشاكل التىْ واجهها الرسول وحلها أحسن الحل كثيرة جداً ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر ، فقد سارا فى طريق العمل المتصل لما فيه خير الأمة ، وكان رسول الله ﷺ صاحب شورى ، ينزل به الأمر فيعرضه على أصحابه ، ويتصرف دائما باتفاق معهم ، بهذا أمره سبحانه وعليه سار . وفى طريقه سار الشيخان ، وخلال عامين عالج أبو بكر أمر المرتدين ، ولم يكن معظمهم بمرتدين ، وإنما هو أبو بكر فسر التوقف عن إخراج الزكاة وإعطاء حق الله ورسوله انفصالا عن الأمة ، ورأى أن إعطاء هذا الحق رمز للانتماء إلى الأمة ، فإذا ترك الناس أحراراً فى أدائه أو عدم أدائه ـ وكان هذا رأى عمر ـ لم يلبث عقد الأمة أن ينفرط ، فإذا انفرط عقد الأمة تفكك أمر الإسلام وضعف ، ومن هنا رأى أبو بكر أن الممتنع عن أداء هذا الحق فى مرتبة المرتد ، وعلى هذا التفسير استجاز حرب الممتنعين ،

وهذا كله ابتكار ، ولكنه ابتكار في نفس خط الرسول ﷺ ، وكذلك كان عمر يفسر ويبتكر على ضوء ما تعلم من القرآن ورسول الله . وكلاهما كان ـ على مثال رسول الله ﷺ رجل عمل لا يتوقف عن الجهد لصالح الأمة لحظة من نهار أو ليل ، وهذا هو طريق الإسلام : طريق عمل واجتهاد متصل في الخط الذى رسمه القرآن وسار فيه رسول الله ﷺ .

وعندما تقرأ قول الله سبحانه في سورة النور :

﴿ وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ [النور ٢٤/ ٥٥] .

نفهم المعنى الحقيقى لمصطلح الاستخلاف في الأرض ، فإن الله عندما يستخلف قوماً في الأرض ، لا يجعلهم بذلك ممثليه ولا حالين محله . بل يمكن لهم في الأرض ويثبتهم في الدين الذى ارتضى لهم ويجتهدون في عمران الأرض ، وهذا بالضبط هو ما فعله رسول الله في إنشاء أمة الإسلام وتعمير وطنها بالعمل الدائب والتمكين لدينها في الأرض بالاجتهاد والاستعداد للتضحية في كل حين ، وكان رسول الله يعرف ذلك ولا ينساه لحظة ، ولهذا فقد كان دائب العمل ، وأمة المدينة التى ولدت بمجرد وصول رسول الله ﷺ إلى يثرب واجتماعه بالمهاجرين والأنصار بدأت ضعيفة جدا ، ولكن رسول الله وَالَى العمل يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى اشتد أزرها وقام أمرها ، وكان ذلك بالعبادات طبعاً . وهى أولى الصالحات ، ثم كان باستصلاح الأرض وزرعها حتى تحصل المدينة على قوتها ، ومنذ اللحظة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن هذه الأمة لابد أن تأكل أكلاً كافياً ليشتد عود أفرادها ، وهى لا تستطيع أن تعتمد في ذلك على غيرها ، فهى لن تلبث أن تدخل في معركة الحياة والموت مع كل معاند ومكابر . ولم يكن أهل

المدينة كلهم قد دخلوا فى الإسلام بعد ، فكان هناك يهود ومترددون ومنافقون وناس كثيرون ينبغى أن يعطوا الوقت الكافى ليطلعوا على فضائل الإسلام وما يعود عليهم من الخير إذا هم دخلوا فيه ، ولكن العمل الأول الذى كان لابد من البدء فيه هو إيقاف تجارة مكة ، فإن مكة قوية بتجارتها ، وكبار أهلها قام جاههم على المال ، فهم لن يؤمنوا بالإسلام طواعية أبداً ، فلابد من الضغط على عنق الحياة المكية وهو طريق التجارة ، ولهذا بدأ الرسول بإرسال بعث إلى منازل قبيلة جهينة لإشعارهم بقيام أمة المدينة وضرورة الدخول فى الإسلام أو فى حلف المدينة على الأقل ، لأن التجارة المكية لابد أن تقف ، وطريق التجارة يمر فى أرض جهينة من ذى خشب إلى ينبع ، وكان قائد البعث عبد الله بن جحش وكان من أجلاء المهاجرين ، ورئيس جهينة معبد بن عمرو الجهنى يرى نفسه أمام قوة من المسلمين على أهبة القتال . وعبد الله بن جحش يطلب إليه أن يدخل فى حلف أمة المدينة ، ويتوقف عن حماية متاجر مكة ، وكان معبد رجلاً ذكياً فأدرك فى الحال أن عليه أن يطيع . فطلب إلى رسول الله أن يوثق موثقاً مع جهينة لتأمنه ويأمنها ، ورسول الله يستجيب ، وفى أثناء ذلك تحركت جماعة من كنانة كانت تنزل بأطراف أرض جهينة ، فأرسل إليها عبد الله بن جحش نذيره فرفضوا الاستجابة وطاردوا وفد المسلمين إلى أرض جهينة .

ويختلف أمر المسلمين على رئيسهم ، ويبلغ الأمر رسول الله ، فلا يرضيه هذا من المسلمين ، إذ لا يجوز أن يخرجوا من عنده متحدين ثم يقع الخلاف بينهم وبين عبد الله بن جحش أميرهم ، فهو واجب الطاعة ، ويعود البعث إلى المدينة وبعد قليل يفد معبد بن عمرو الجهنى إلى المدينة ، ويلقى الرسول فيكرمه ويكسوه ولكن معبد الجهنى لم يفهم الأمر على حقيقته فهو لا يزال على مودته مع القرشيين ، فيرسل الرسول ﷺ عمه حمزة فى بعثة إلى سيف البحر وهذه أول سرية يذكرها أصحاب السيرة ، أما سرية عبد الله بن جحش فقد تبين لنا أمرها من

المطالعة الدقيقة لدلائل النبوة للبيهقى ، وكتاب شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام للفاسى ، ويعود حمزة إلى المدينة وبعد قليل يرى رسول الله ﷺ أنه لابد له من أن يحسم أمر جهينة بنفسه ، فيخرج فى غزاته الأولى ووجهتها يواط فى اقليم الفرع ويلقى معبد بن عمرو الجهنى ويقول له : أتحب أن ننبذ إليك ؟ . ويدرك الرجل أن الأمر أخطر مما كان يظن ، فيقول لسنا بحاجة إلى حربك ، وهنا فقط يطمئن رسول الله إلى أن الرجل فهم ، وأنه منذ الآن لابد أن يقف إلى جانب المدينة ، ويدخل الجهنيون الإسلام أفواجاً .

وهذا كله وما تبعه من غزوات وسرايا قبل بدر تم خلال أقل من عام من هجرة الرسول ﷺ إلى مكة ، وهو يدلك على مقدار الجهد الذى كان رسول الله يبذله للقيام بحق رسالته ، فإن الغايات لا تدرك إلا بالأعمال ، ورسول الله رجل نشيط لا يطمئن له جنب مادام أمامه عمل لابد أن يقوم به .

ففى أثناء هذه السرايا والمغازى التى كان يمهد بها للقاء الحاسم مع مكة كان يعمل دائباً فى إنشاء أمة المدينة وتثبيت دعائمها بالعمل المتصل ، فهو يؤاخى بين المهاجرين والأنصار، وهو يجتمع مع أصحابه ويشاورهم فى تنظيم أمر الأمة على أساس قانونى واضح ، فإنه استقر فى المدينة على أساس اتفاق بسيط عقد يوم العقبة الثانية ، وهذا الاتفاق هو بيعة العقبة الثانية ، وهى مجرد تعهد من جانب أهل المدينة باستضافة الرسول وحمايته من العدوان ، ولكن محمداً صلوات الله عليه غيَّر الموقف تغييراً حاسماً خلال الشهور الأولى لهجرته إلى المدينة ، فهو لم يكن قط مهاجراً إلى المدينة ، بحثا عن مكان يأمن فيه على نفسه وجماعته ، ويمارسون فيه عباداتهم دون تعرض من جانب المكيين ، لقد هاجر لغاية أخرى أعظم من ذلك بكثير ، إنه يريد أن ينشىء أمة الإسلام ويشد عضدها ويقوى بنانها لتقوم بالعمل العظيم ، ومن ثم فهو يريد أن يستبدل ببيعة

العقبة الثانية اتفاقاً أكبر وأشمل لتقوم عليه الأمة الإسلامية ، وهذا الاتفاق لا يمكن فرضه ، بل لابد أن يكون بتفاهم ورضا من الأمة ، ومن هنا تبدأ المفاوضات التى تنتهى بالصحيفة التى أملى رسول الله جزءها الأول على على بن أبى طالب كاتب الوحى إذ ذاك ، وبعد قليل ومع نمو الأمة يكتب الجزء الثانى بعد بدر ، والثالث بعد أحد ، ثم تستكمل المواد بحسب الظروف بعد ذلك .

وفى أثناء ذلك يجرى العمل على قدم وساق داخل المدينة ، فيقوم مسجد رسول الله ﷺ وتنشأ المنشآت ، وكل هذه هى الأعمال الصالحات التى تذكرها الآيات الكريمة ، وبها تستحق أمة الإسلام الاستخلاف ، لأن الاستخلاف فى الأرض معناه تأييد الله سبحانه للأمة الصالحة التى تقوم بأمانة الإيمان السليم ، وتقوم بأمانة تعمير الأرض ، فالله سبحانه خلق الأرض لعباده الصالحين لتعميرها ، وهو سبحانه قد منح الإنسان العقل ليستخدمه فى الطاعة لرسله واتباع طريقه والدخول فى دينه عن قلب واع مدرك ، ثم تقوية هذه الأمة بالعمل الصالح لتعمير الأرض حتى تكون بلاد أمة الإسلام أجمل وأرقى أمم الأرض ، فيكون هذا الجمال وذلك العمران أنصع دليل على فضائل الإسلام .

وكانت هذه المعانى كلها فى ذهنى ، ولكنى قرأت خلال العام المنقضى قراءات طويلة عن الاستعمار وماذا فعله المستعمرون ببلاد الإسلام ، والكثير من الكتب التى قرأتها كتب مصورة ، وتصاويرها رسمها رسامون زاروا بلادنا أثناء عصر التوغل الاستعمارى ، بعضهم كانوا مصاحبين للجيوش الأوربية المعتدية ، وهؤلاء المصورون رسموا ما رأوا من مناظرنا ومناظر بلادنا ، وأصارحك القول بأننى شعرت بالخجل وأنا أنظر إليها ، فإن مناظرنا قبل عصر الاستعمار كانت مزرية جداً ، وفقر بلادنا كان شديداً ، ومدينة الاسكندرية التى كان ينبغى أن

تكون أعمر وأجمل وأغنى من لندن ، كانت قد تدهورت حتى أصبحت قرية لا يسكنها إلا خمسة آلاف إنسان ، وكل ذلك نتيجة للكسل والقعود عن العمل وظلم الحكام ، وكل هذه أمور ليست من الإسلام فى شيء ، فإن العبادات فى رأس الصالحات ولكنها ليست كل الصالحات ، فالدراسة والتعليم والبحث والابتكار والعمل لما فيه خير الإنسان وجماعته صالحات ، ولقد فهمت وأنا أتأمل هذه الصور لماذا جرءوا علينا واقتحموا بلادنا وهزمونا بأيسر مئونة ، والمماليك الذين صور لهم غزوهم وجهلهم أن لا قوة فى الأرض تقف أمامهم تبددوا فى معركة لم تستغرق أكثر من ساعة ، والأهرام تنظر إليهم وتتحسر على أحوالهم ، وعندما دخل الفرنسيون القاهرة ونزل رئيسهم نابليون بونابرت فى دار واحد من كبار المماليك دهش من الفقر الذى رآه ، فهو يأتى من بلاد فيها قصور ملكية تروع النفس بهجة وجمالاً وغنى ، فإذا بقصر هذا الرئيس المملوك الكبير أقل بكثير من دار ضابط فرنسى صغير فى باريس .

وذلك كله أتى من الكسل والقعود عن العمل ، وحسباننا أن الأعمال الصالحات هى العبادات وحسب ، وفاتنا أن نعرف أن الصالحات يدخل فيها عمران الأرض ، وما كان ربك سبحانه ليستخلفنا فى الأرض وقد تكاسلنا ونمنا ورضينا بالفقر والذل ، ومن يطلب الاستخلاف فى الأرض فليكن على مستواه ، والحياة فى الأرض جهد وعمل واجتهاد ، والقيام بالعبادات أداء لحق الله على الإنسان ، ولكن الله سبحانه يريد لأمته أن تكون أمة علم وعمل واجتهاد وبناء وعمارة وزراعة وصناعة وقوة فى العقل والجسد ، وكل ما نعمله فى سبيل ذلك يدخل فى صوالح الأعمال ، وكل أزماتنا ومتاعبنا علاجها العمل ، العمل الطيب المتقن القائم على علم ودرس وتجربة ، والله سبحانه يحب العمل الجيد ، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، وصدق الحق سبحانه فى قوله : ﴿ **ذلك أن لم**

يكُن ربك مُهْلك القُرى بُظلم وأهلُها غافلـونَ . ولكُل درجاتٌ مِما عملُوا وما ربك بغـافِـلٍ عما يَعْمَلـون . وربك الغَنِى ذو الـرَّحمةِ إن يَشـأ يُـذهِبكُمْ ويَستخلفْ من بعدكُم ما يشاء . كَما أنَشأكُم مِن ذرِية قومٍ آخرِين . إن ما تُوعـدون لآتٍ وما أنتم بِمُعجـزين . قُل يَا قـومِ اعملوُا علَى مكـانتكُم إنِي عامِل فسَوف تـعلمون من تكُونُ لهُ عاقبُة الدارِ إِنهُ لا يُفلِحُ الظالِمُونَ ﴾ .

[الأنعام ٦ / ١٣١ ـ ١٣٥] .

***

ObeiKandl.com